المقارنة بين السيرة الذاتية في الأدب العربي ونظيراتها في الأدب الغربي

A Comparison Between Autobiography in Arabic Literature and Its Counterparts in Western Literature

Dr. Muhammad Khurram Shahzad
Lecturer, Department of Arabic, AIOU, Islamabad
Email: muhammad.khurram@aiou.edu.pk
Dr. Abdullah Muhammad Bilal
Lecturer, Department of Arabic, NUML, Islamabad
Email: ambilal@numl.edu.pk

Abstract
This research paper presents a comparative analysis of the autobiography as a literary genre in Arabic and Western literature, examining the evolution, narrative techniques, thematic concerns, and cultural functions of autobiographical texts in both traditions. In Arabic literature, autobiographies have often served educational, ethical, and social purposes, emerging from religious and collective values. They tend to follow a chronological structure and are shaped by modesty and communal identity. In contrast, Western autobiographies focus more on individual experience, personal freedom, and psychological introspection, often employing non-linear structures and bold self-revelation.
The study explores how these differences reflect broader cultural and philosophical orientations within each tradition. It further discusses representative texts—such as *"Al-Ayyam"* by Taha Hussein and *"Confessions"* by Jean-Jacques Rousseau—as primary examples of how autobiography is used to construct identity, confront society, and document personal transformation. Ultimately, the paper highlights the role of autobiography as both a mirror of the self and a window into the values of the society from which it emerges.
Keywords: Autobiography, Arabic Literature, Western Literature, Cultural Identity, Narrative Structure, Self-Expression, Comparative Literature

مقدمة:

السيرة الذاتية هي شكلٌ من أشكال الكتابة الأدبية التي يسرد فيها الكاتب أحداث حياته الخاصة، ويسلط الضوء على تجاربه الشخصية، وتطوّره الفكري، وتحولاته العاطفية، وتفاعله مع المجتمع

من حوله. لا تقتصر السيرة الذاتية على مجرد سرد وقائع الحياة، بل تتجاوز ذلك إلى تأملات الكاتب في مسيرته، ومحاولة فهم ذاته، وتفسير الأحداث التي أثّرت في تكوين شخصيته وسلوكه.

وقد ظهرت السيرة الذاتية منذ عصور مبكرة، لكنها اتخذت ملامح واضحة ومتمايزة في كل من الأدبين العربي والغربي، كلٌّ بحسب بيئته الثقافية والدينية والفكرية. ففي الأدب العربي، غالبًا ما ارتبطت السيرة الذاتية بمقاصد تعليمية وأخلاقية، وكانت مدفوعة برغبة الكاتب في تقديم نموذج يُحتذى به أو توثيق مسيرة علمية أو اجتماعية، كما نرى في "الاعتبار" لأسامة بن منقذ أو "الأيام" لطه حسين. بينما في الأدب الغربي، خصوصًا منذ عصر التنوير، أصبحت السيرة الذاتية وسيلة للتعبير عن الذات الفردية وتفكيك التجربة الشخصية بجرأة، كما هو الحال في "الاعترافات" لجان جاك روسو.

كما أن السيرة الذاتية تحمل طابعًا ثقافيًا قويًا، فهي لا تُظهر شخصية الكاتب فحسب، بل تعكس أيضًا المنظور العام لمجتمعه وتكشف عن العلاقة المتبادلة بين الفرد والبيئة التي نشأ فيها. وهي بذلك تشكّل وثيقة أدبية واجتماعية مهمة تساعد القارئ على فهم روح العصر وظروف الحياة في سياقاتها المختلفة.

لقد تطورت السيرة الذاتية في كلا الأدبين عبر مراحل متعددة، واختلفت في أسلوبها وبنيتها ووظيفتها، لتكون مرآة تعكس التغيّرات الاجتماعية والثقافية التي مرّت بها المجتمعات، وشاهدة على تحولات الفكر الإنساني عبر الزمن.

أولاً: نشأة السيرة الذاتية في الأدب العربي:

بدأت ملامح السيرة الذاتية في الأدب العربي مع النصوص التراثية، مثل كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ، و"التعريف بابن خلدون"، ثم تطورت في العصر الحديث مع شخصيات مثل طه حسين في "الأيام"، وأحمد أمين في "حياتي". وتميل السيرة الذاتية العربية إلى الجمع بين الطابع السردي والبعد التربوي والديني والاجتماعي.

1. الإرهاصات الأولى للسيرة الذاتية في التراث العربي:

ظهرت البدايات الأولى لما يمكن اعتباره سيرة ذاتية في الأدب العربي داخل نصوص تراثية امتزجت فيها الخبرة الشخصية مع الطابع التاريخي والأدبي، ومن أبرزها كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ، حيث روى المؤلف أحداث حياته، لا سيما تلك المرتبطة بالحروب الصليبية، بطريقة تقرّب القارئ من مشاعره وتجربته الإنسانية. وقد كتب يقول:

"ونظرتُ فإذا أنا في وسط القوم لا أجد لنفسي مخرجًا، وقد انهالت السهام من كل جانب، وارتفع الصراخ، واشتد الطعن، فقلت في نفسي: ما هذه إلا ساعة الموت، فرفعتُ يدي إلى السماء وقلت: يا رب، إن كنت تعلم أنني ما خرجتُ إلا نصرةً لدينك، فانجني كما نجيت عبادك الصالحين." [1]

يتضح من هذا النص أن أسامة لم يقتصر على السرد الوقائعي بل ضمّن تجربته أبعادًا دينية وعاطفية عميقة.

كذلك نجد نموذجًا آخر في كتاب "التعريف بابن خلدون"، حيث دوّن المؤلف رحلته شرقًا وغربًا، متناولًا أحواله الشخصية وتقلبات حياته العملية والفكرية. يقول:

" ثم لم ألبث أن نُقلت من مكاني، دون إرادة مني، إلى عمل آخر. ولم يكن لي من الأمر شيء، ولكني رأيت أن الصبر أولى، فإنما الدنيا دول، والمناصب لا تدوم لأحد. ومضيت في سبيلي، أحمِل معي كتبي وقلمي، وقد آليت أن لا أترك العلم ولو تبدلت الدنيا من حولي." [2]

هذه الفقرة تكشف عن وعي ابن خلدون بذاته وبالزمن، وتمثل بُعدًا تأمليًا نادرًا في مؤلفات تلك المرحلة.

2. تطوّر السيرة الذاتية في العصر الحديث:

مع تطور الأدب العربي الحديث، ظهرت أعمال ذات طابع سردي واضح ركّزت على التجربة الذاتية بوعي فني جديد، ومن أبرزها كتاب "الأيام" لطه حسين .في هذا العمل، يستعرض المؤلف طفولته، ومعاناته مع العمى، والصراع مع المجتمع والتقاليد. وقد كتب:

"كان الصبي يحبّ أن يذهب إلى الكُتّاب، ولكن الطريق لم تكن سهلة. كان أبوه يمسك بيده، ويسير به في الشوارع المزدحمة. وكان يشعر بأشياء كثيرة من حوله، ولكنه لا يراها. وكان يسمع أصواتًا، ولكنه لا يعرف من أين تأتي. وكان يخطو خطواته على الأرض وهو يتساءل: هل هذه هي الحياة التي يعيشها الناس؟" [3] هذا الاقتباس يبيّن كيف استخدم طه حسين السرد ليُعبّر عن تجربة داخلية معقدة، تبدأ من الإدراك الغامض للعالم، إلى مرحلة التساؤل الفلسفي عن الوجود والمعنى.

لقد اتسمت "الأيام" بقدرة سردية متميزة جمعت بين البساطة الأدبية والعمق النفسي، حيث عمد طه حسين إلى استخدام ضمير الغائب لخلق مسافة موضوعية بينه وبين شخصيته في مرحلة الطفولة، كما أنه ضمّن العمل رموزًا وتأملات تشير إلى أزمة الإنسان العربي الحديث مع مفاهيم السلطة والمعرفة والهوية.

3.السيرة الذاتية كأداة توثيق ثقافي وفكري:

في سياق مماثل، قدّم أحمد أمين في كتابه "حياتي "سيرة ذاتية تعكس تطوره العلمي والثقافي، وتسلّط الضوء على تجربة المفكر المسلم في بيئة تتقاطع فيها التقاليد والحداثة. وقد كتب يقول:

"كنتُ فتىً خجولًا، أنطوي على نفسي، أقرأ الكتب في صمت، وأتحاشى الجلوس في المجالس. كنتُ أشعر أن شيئًا في داخلي يدفعني نحو العلم، ولكني لم أكن أملك سوى الإرادة وبعض الكُتب القديمة. وكنتُ أنظر إلى أساتذتي في الأزهر نظرة احترام، ولكنّي كنت أتحسّس الفرق بين ما يقولونه، وبين ما أراه في واقع الحياة، فكان الصراع داخليًّا عنيفًا." [4]

يتضح من هذا الاقتباس أن الكاتب كان يعي التناقض بين المعرفة التقليدية والواقع المتغيّر، وكان يدوّن ذلك بأمانة وجرأة فكرية.

وفي موضع آخر من الكتاب، يكشف أحمد أمين عن تصوره لدور السيرة الذاتية حين يقول:

"لم أكتب سيرتي حبًا في الحديث عن نفسي، ولكن لأنني شعرت بأن تجربتي قد تكون ذات فائدة لغيري. فالكاتب ليس له أن يحتكر الألم أو الفرح، بل عليه أن يشارك الناس بما تعلّمه، عسى أن يكون في ذلك هدى أو عبرة." [5]

وهذا التصريح يضع السيرة الذاتية في إطارها الأخلاقي والتربوي، كما هي الحال في كثير من نصوص الأدب العربي، حيث لا يُنظر إليها كمساحة فردية خالصة، بل كأداة لخدمة المجتمع والفكر.

ثانيًا: نشأة السيرة الذاتية في الأدب الغربي:

ترجع جذور السيرة الذاتية الغربية إلى العصر الكلاسيكي، لكنها تطورت بشكل بارز مع العصر الحديث، ومن أبرز النماذج: "الاعترافات" لجان جاك روسو، و"تجربة الحياة" لهنري ديفيد ثورو. وتميل السير الغربية إلى التركيز على الفردانية، والتحليل النفسي، وتحرر الذات من القوالب التقليدية.

1. الجذور الفلسفية والدينية للسيرة الذاتية الغربية

تعود جذور السيرة الذاتية في الأدب الغربي إلى العصور الكلاسيكية، لكنها بدأت تتشكّل بشكل أكثر وضوحًا في العصور الوسطى، لا سيما في سياقات دينية وتأملية. ومن أبرز الأمثلة الأولى كتاب "الاعترافات" لأوغسطينوس(Saint Augustine) ، والذي كتب فيه عن رحلته من الضياع إلى الإيمان، متأملًا في خطاياه وعلاقته بالخالق. يقول:

"كنت أهرب من نفسي، وأتوه في لذّات الحياة، لكنك يا رب لم تتركني، كنتَ قريبًا، أقرب إليّ من نفسي، تسمع أنيني حين أُخفيه، وتغفر لي قبل أن أنطق بالاعتراف. كنتُ أطلب الحقيقة خارج نفسي، بينما كانت تسكن داخلي منذ البداية، ولكني كنتُ أعمى عنها." [6]

هذا النص لا يصف فقط تجربة شخصية، بل يشكّل حجر الأساس لفكرة السيرة الذاتية بوصفها وسيلة لاكتشاف الذات من خلال التأمل في الماضي والإيمان.

وقد أسّست هذه التجربة النموذج الديني للسيرة الذاتية الغربية، والذي سيؤثر لاحقًا على الكثير من النصوص، حتى تلك التي تحرّرت من الطابع اللاهوتي، لكنها ظلّت تحتفظ بمركزية "الذات" وتحوّلاتها.

2.التحول نحو الذات الفردية مع روسو:

في القرن الثامن عشر، أحدث جان جاك روسو نقلة نوعية في كتابة السيرة الذاتية، من خلال كتابه الشهير "الاعترافات(Les Confessions) "، الذي عبّر فيه عن نفسه بحرية وجرأة غير مسبوقة. كتب روسو:

"لقد شرعت في عمل لم يسبقني إليه أحد: سأعرض أمام البشرية إنسانًا بكل ما فيه، كما هو، دون تنميق أو تزوير. سأقول الحقيقة عن نفسي، كما أعرفها، وإن كانت لا تسرّ الناس. سأكشف ضعفي وخطاياي، وأدع القارئ يحكم عليّ كما يشاء، لكنني سأكون صادقًا مع نفسي حتى النهاية." [7]

بهذا التصريح التأسيسي، وضع روسو حجر الأساس للسيرة الذاتية الحديثة في الغرب، حيث لم تعد الذات تُعرض لتكون قدوة، بل لتُفهم، وتُواجه، وتُفكّك.

وتتميّز "الاعترافات" بأسلوب سردي نفسي، حيث يستعرض روسو مشاعره المعقّدة وتجاربه الطفولية وصراعاته الداخلية بشفافية لافتة، وهو بذلك أوجد نموذجًا أدبيًا جديدًا يتمحور حول التحليل النفسي للذات، لا حول تمجيدها أو تبرير أفعالها.

3. السيرة الذاتية في العصر الحديث: بين التحليل النفسي والهوية الثقافية

في القرن العشرين، تطورت السيرة الذاتية الغربية لتصبح أداة تحليل نفسي وثقافي، تعكس التغيرات الاجتماعية والتحوّلات الوجودية، كما يظهر في أعمال مثل) "A Moveable Feast"وليمة متنقلة (للكاتب الأمريكي إرنست همنغواي، حيث يصف حياته في باريس، وتجاربه مع الكتابة والحب والمجتمع الأدبي. يقول في أحد المواضع:

"كنت أجلس في المقاهي الباريسية، أكتب على دفتر أصفر، وأحتسي القهوة السوداء، وكانت الشمس تتسلل من بين الأشجار. لم أكن أملك مالًا، لكنني كنت أملك الكلمات، وكان العالم أمامي كصفحة بيضاء. كنت أكتب كي أعيش، وكنت أعيش كي أكتب." [8]

يمزج همنغواي هنا بين اللحظة اليومية وبين الفعل الإبداعي، ليقدّم سيرة أدبية تتجاوز السرد التقليدي نحو تجربة وجودية كاملة.

ومن النماذج الأخرى التي تعكس التطور في مفهوم السيرة الذاتية الغربية، كتابات فرجينيا وولف التي تمزج بين السيرة والتخييل في أعمال مثل" Moments of Being" ، حيث كتبت:

"الحياة لا تُفهم من خلال أحداثها فقط، بل من خلال لحظاتها الصامتة، تلك اللحظات التي نشعر فيها بأننا على قيد الحياة حقًا. أكتب لأحتفظ بهذه اللحظات، لأمنعها من التلاشي، ولأحاول أن أفهم من أكون." [9]

هذا الاقتباس يعكس انتقال السيرة الذاتية إلى فضاء تأملي داخلي، حيث تصبح الكتابة ذاتها فعلًا معرفيًا ووسيلة لإدراك الذات.

يتضح من تتبّع نشأة السيرة الذاتية في الأدب الغربي أنها مرت بتحوّلات جوهرية، بدأت من الاعترافات الدينية والتوبة الروحية، ثم انتقلت إلى الجرأة الفردية والبوح الذاتي، ووصلت أخيرًا إلى مرحلة تفكيك الذات وتحليلها نفسيًا وثقافيًا، باستخدام أدوات سردية متنوّعة وأشكال أدبية هجينة. وقد أصبحت السيرة الغربية مجالًا لتجريب الشكل والمضمون، وللتعبير عن الانتماء والاغتراب، كما أصبحت تعكس اهتمامات الإنسان الحديث بالهوية والحرية والمعنى.

ثالثًا: المقارنة بين السيرة الذاتية في الأدب العربي ونظيرتها في الأدب الغربي

1. من حيث الأسلوب: بين الحشمة العربية والبوح الغربي

من أبرز الفروقات بين السيرة الذاتية في الأدب العربي ونظيرتها في الأدب الغربي الأسلوب التعبيري المستخدم في عرض الذات. فالأسلوب العربي غالبًا ما يتسم بالحشمة، والتحفظ، والانضباط اللغوي، إذ يحرص الكاتب العربي على اختيار ألفاظ مهذبة، وتجنّب التفاصيل الخاصة جدًا، احترامًا لقيم المجتمع والدين، كما يظهر في قول طه حسين في "الأيام:"

"لم يكن من اليسير أن يتحدث الصبي عما في نفسه، فقد تعلّم منذ صغره أن السكوت من ذهب، وأن التعبير عما في الداخل قد يُعدّ خروجًا عن الأدب." [10]

أما في السيرة الغربية، فتميل اللغة إلى الصراحة والبوح، وأحيانًا الصدمة، حيث يسعى الكاتب إلى تقديم ذاته كما هي دون تزيين، بل بتعريتها نفسيًا واجتماعيًا. وهذا ما عبّر عنه جان جاك روسو في "الاعترافات"

حين قال:

سأعرض حياتي بكل أخطائها، لا أخشى من لوم أحد، لأنني أؤمن أن الحقيقة وحدها تستحق أن تُقال، حتى وإن آلمت الآخرين أو جرحت مشاعرهم." [11]

وهذا الفرق الجوهري في الأسلوب يعكس مدى تأثر السيرة الذاتية بالسياق الثقافي والأخلاقي الذي تنشأ فيه.

2.من حيث البنية: خطّية عربية في مقابل تشظٍّ غربي

تتسم البنية السردية للسيرة الذاتية في الأدب العربي عمومًا بالخطّية الزمنية، حيث يبدأ الكاتب بسرد حياته من الطفولة، مرورًا بمرحلة التعليم، ثم النضج، في تسلسل زمني واضح. وهذا ما فعله أحمد أمين في "حياتي"، حيث بدأ يقول:

"ولدتُ في بيت متواضع في القاهرة القديمة، وفتحت عينيّ على عالم لا أفق له، ثم دخلت الكتّاب، ثم الأزهر، وهكذا بدأت رحلتي الطويلة في طلب العلم" . [12]

أما في الأدب الغربي، فغالبًا ما تكون البنية غير خطّية، تعتمد على التداعي الحرّ للأفكار، والفلاش باك، والعودة المتكررة للماضي من زوايا مختلفة. ويُعد هذا الأسلوب أكثر تعقيدًا وعمقًا من الناحية النفسية، كما في كتاب "Moments of Being"لـ فرجينيا وولف، حيث كتبت:

"لا أستطيع أن أروي حياتي كما وقعت، بل كما أشعر بها. هناك لحظات من الوجود تلمع فجأة وسط العتمة، تشكّل ذاكرتي أكثر من أي تسلسل زمني للأحداث." [13]

هذا التفاوت في البناء يعكس اختلافًا في طريقة فهم الذات وتشكيلها سرديًا.

3.من حيث الوظيفة: التربوية العربية في مقابل التحليلية الغربية

تؤدي السيرة الذاتية في الأدب العربي غالبًا وظيفة تربوية أو تعليمية، إذ يسعى الكاتب إلى تقديم تجربته كأنموذج يحتذى به، أو كمرجع للأجيال القادمة، بحيث تُفهم السيرة ضمن إطار أوسع من المسؤولية الأخلاقية والاجتماعية. وهذا ما وضّحه أحمد أمين في خاتمة كتابه بقوله:

"لست أزعم أنني عشت حياة خارقة، ولكني وثقتها لأنني أرجو أن يجد فيها الشباب ما يعينهم على تخطي عقبات الطريق." [14]

أما في الأدب الغربي، فإن الغاية من السيرة الذاتية تميل إلى التحليل النفسي، وفهم الذات، وتفكيك التجربة الفردية، بل وربما مساءلة القيم الاجتماعية ذاتها. ويبرز هذا الاتجاه في أعمال إرنست همنغواي وسيمون دي بوفوار ومارغريت دوراس، حيث لا تُكتب السيرة بهدف الإصلاح أو النمذجة، بل بوصفها بحثًا فلسفيًا داخليًا في ماهية الإنسان. تقول سيمون دي بوفوار في "Memoirs of a Dutiful Daughter":

"كنت أكتب لا لأبرر نفسي، بل لأفهم تلك الطفلة التي كنتها، ولأواجه المرأة التي أصبحتها. لم يكن هدفي أن أنال إعجاب أحد، بل أن أصل إلى حقيقة نفسي." [15]

4. من حيث الموضوعات: الهوية الجماعية مقابل الذات الفردية

تميل السيرة الذاتية في الأدب العربي إلى التركيز على الهوية الجماعية، من خلال ارتباط الفرد بالمجتمع، والأسرة، والدين، والتعليم، والوطن. فالفرد لا يُفهم إلا ضمن نسيجه الثقافي والاجتماعي. وقد قال طه حسين في أحد مواضع "الأيام:"

"كان الصبي يشعر أنه ينتمي إلى أمّة كبيرة، وأن عليه أن يتعلّم لا من أجل نفسه فقط، بل من أجل قومه الذين ينتظرون منه أن يعود إليهم بالعلم والنور." [16]

أما السيرة الغربية، فتركّز على الذات الفردية بوصفها كيانًا مستقلًا، يخوض معركته الداخلية مع العالم، ويحق له الشك، والتمرد، وإعادة تعريف القيم. ويظهر ذلك جليًا في أعمال روسو وولف وهِنري ديفيد ثورو، الذين كتبوا سيرهم كرحلة فردية نحو التحرر والوعي، لا كتمثيل لجماعة أو ثقافة.

من خلال هذا العرض المقارن، يتبيّن أن السيرة الذاتية في الأدب العربي تنبثق من منظومة جماعية تقوم على الالتزام الخلقي، بينما تميل في الأدب الغربي إلى التمركز حول الذات وتفكيكها نفسيًا وفلسفيًا. كما تختلف في بنيتها وأساليبها ووظائفها، ما يعكس تفاوتًا عميقًا في المنطلقات الفكرية والأنثروبولوجية بين الثقافتين.

رابعًا: نماذج تطبيقية مقارنة بين السيرة الذاتية العربية والغربية

1."الأيام" لطه حسين: سرد المعاناة والتحوّل بالتعليم

يُعد كتاب "الأيام "لطه حسين من أبرز نماذج السيرة الذاتية في الأدب العربي، إذ يتناول فيه المؤلف مسيرته من الطفولة في ريف مصر إلى قاعات الأزهر ثم الجامعة، كاشفًا عن صراعات داخلية بين التقاليد والعقل، وبين الظلام والنور، وبين القبول المجتمعي والتمرّد الفردي. في أحد المقاطع المطوّلة، يقول:

"وكان الصبيّ يشعرُ بشيء غريبٍ يتكوّن في داخله، لا يعرف له اسمًا ولا يقدر أن يصفه، لكنه كان يعلم أنه لا يشبه ما يشعر به إخوته وأقرانه. كان يسمع ضحكاتهم، ويشاركهم اللعب أحيانًا، لكنه يشعر وكأنه ليس منهم، وكأن بينه وبين العالم ستارًا سميكًا من ظلمة لا يراها سواه. وكان يسأل نفسه كثيرًا: لماذا أرى بأذنيّ؟ لماذا لا أرى كما يرى الناس؟ أكان ذنبي أن ولدت هكذا؟ وهل سيكون لي مستقبل كغيري؟" [17]

هذا المقطع يكشف بعمق عن الوعي المبكر للكاتب بذاته واختلافه، وعن إحساسه بالغربة الوجودية داخل بيئته الاجتماعية، ويُظهر أيضًا الحس الفلسفي الذي يغلّف نصوص السيرة الذاتية العربية الحديثة.

2."الاعترافات" لجان جاك روسو: تمرّد الذات وبحثها عن الصدق

في المقابل، تمثّل "الاعترافات "لجان جاك روسو مثالًا رائدًا في السيرة الذاتية الغربية، حيث يكتب عن نفسه من دون تحفّظ، كاشفًا عن أخطائه وتناقضاته، ليس رغبة في التبرير، بل سعيًا نحو الصدق المطلق. في أحد المقاطع الطويلة، يقول:

"لقد ارتكبتُ في حياتي أفعالًا أستحي من ذكرها، بل وأشعر بالخجل من مجرد التفكير فيها. ومع ذلك، فإنني سأكتبها كما حدثت، دون تغيير أو تجميل. لقد سرقتُ ذات مرة قطعة حلوى صغيرة، وأنا طفل، ثم اتهمتُ خادمة بريئة بذلك، فطُردت من المنزل. لم أنسَ تلك الليلة، ولا تلك النظرة في عينيها وهي تغادر باكية. كنت أودّ لو اعترفتُ، لكنني لم أملك الشجاعة. اليوم، بعد عشرات السنين، أقول للعالم: أنا الذي سرقت، وأنا الذي ظلمت. أقولها ليس لطلب الغفران، بل لأني أكره أن أعيش كاذبًا." [18]

في هذا النص، نرى جرأة غير معهودة في أدب القرن الثامن عشر، حيث يتحول النص من مجرد سرد للسيرة إلى محاكمة للذات، ومن التعبير عن الماضي إلى تفكيك للضمير.

3. التوازي والاختلاف في الطرح بين النموذجين:

حين نقارن بين طه حسين وروسو، نلاحظ أن كليهما استخدم السيرة الذاتية وسيلة للتأمل في الذات، غير أن الفروق جلية .طه حسين قدّم سيرة ذاتية تُظهر الذات وهي تصنع طريقها في ظل المعوقات، مركّزًا على قوة الإرادة والمعرفة كأدوات للتحوّل، بينما روسو واجه الذات مواجهة نفسية مباشرة، كاشفًا نقائصها وانكساراتها الأخلاقية.

طه حسين غالبًا ما يُغلّف مآسيه بلغة شاعرية ورؤية إصلاحية، كما في قوله:

"كان في صمته حكمة، وفي بكائه درسٌ، وفي ضعفه قوّة خفيّة لا يدركها إلا من ذاق مرارة الحاجة إلى المعرفة". [19]

بينما روسو يُقارب ذاته بشكل أكثر حدة ومكاشفة، كما في قوله:

"كنتُ أهرب من الناس ليس لأنهم سيئون، بل لأنني أخاف من أن يروا وجهي الحقيقي، الذي لا أراه أنا نفسي إلا قليلًا." [20]

الذات عند طه حسين تُبنى، بينما عند روسو تُهدم وتُعاد تشكيلها، والهدف في الأول هو التعليم والإلهام، أما في الثاني فهو التطهير النفسي والتبرير الوجودي.

يتّضح من خلال هذين النموذجين أن السيرة الذاتية، رغم تشابه أهدافها العامة، تعكس الفروقات الحضارية بين الثقافتين. ففي الأدب العربي، تميل إلى تقديم نموذج صالح من خلال سرد التجربة الشخصية، بينما في الأدب الغربي، يُقدَّم الإنسان كما هو، بنقائصه وتناقضاته، حتى وإن بدت سيرته صادمة أو مرفوضة أخلاقيًا. هذه المقارنة تُبرز أن السيرة الذاتية ليست فقط فنًّا أدبيًا، بل وثيقة حضارية تعبّر عن رؤية المجتمع للذات، وللقيمة الإنسانية، وللحقيقة ذاتها.

خامسًا: الوظائف الفكرية والثقافية للسيرة الذاتية بين الأدبين العربي والغربي

1.السيرة الذاتية كأداة لصناعة النموذج في الأدب العربي

في السياق العربي، غالبًا ما تؤدي السيرة الذاتية وظيفة أخلاقية وثقافية تتجاوز حدود الفرد إلى الجماعة، حيث يُنظر إلى "الذات الكاتبة" بوصفها ممثِّلة لهوية أوسع، كهوية دينية أو قومية أو طبقية. وغالبًا ما يسعى كاتب السيرة إلى تقديم ذاته كنموذج يُحتذى به، لا باعتباره استثناءً، بل نتيجة جهد، وتربية، وإيمان. هذا ما نلمسه في كتاب "حياتي" لأحمد أمين، حيث يكتب:

"لم أكن أبحث عن المجد حين بدأت أدوّن تجربتي، ولم أرَ في نفسي ما يميزني عن سواي من أبناء جيلي، ولكنني شعرت بأن الإنسان قد يُنقذ غيره بمجرد أن يروي له كيف نجا. كانت حياتي سلسلة من الصراعات الصغيرة والانتصارات الخفية، ولكني أحببت أن أُظهِر كيف أن الإرادة البسيطة قد تفتح أبوابًا كانت مغلقة." [21]

هذا الاقتباس يوضح كيف تصبح السيرة وسيلة لتوريث القيم، وتقديم التجربة الشخصية على أنها تجربة قابلة للتكرار، تربوية في جوهرها، وتوجيهية في هدفها.

وفي هذا الإطار، يتم إضفاء بعدٍ جماعي على الذات الفردية، حيث يرى القارئ أن السيرة ليست مجرد اعترافات، بل مشروع ثقافي وأخلاقي يرمي إلى بناء الإنسان في مجتمعه.

2.السيرة الذاتية كأداة تحليلية ونقدية في الأدب الغربي

في الأدب الغربي، تتجه السيرة الذاتية في كثير من الأحيان إلى تفكيك الذات، لا تمجيدها أو تقديمها كنموذج. بل تتجاوز ذلك إلى مساءلة الهوية والثقافة والأخلاق. هذا ما يتجلى في كتابات سيمون دي بوفوار، وجورج أورويل، وميشيل فوكو، حيث تُستخدم السيرة كأداة للكشف عن آليات القمع والسلطة والهوية الاجتماعية. في مذكراتها، كتبت سيمون دي بوفوار:

"لم أكتب لأخلّد نفسي، بل لأفككها. كنتُ أشعر أنني نتاج لمجتمع له قوانينه، لكنه لا يراها. كنتُ أتحسس الفروقات بين الذكر والأنثى، بين الطبقة العاملة والمثقفين، بين الحرية والقيد، وأدركت أن فهم الذات يقتضي مواجهة النظام لا اعتناق خطابه." [22]

هذا الاستخدام للسيرة يبتعد عن النمذجة، ويقترب من النقد الاجتماعي والفكري، حيث يُوظَّف السرد الشخصي لفهم البُنى الكبرى التي تشكل الإنسان كما كتب ميشيل فوكو في نصوصه الذاتية:

"أكتب عن نفسي لأنني لا أثق بما يُقال عني. كل سيرة تُكتب من الخارج هي تشويه. لذا، اخترت أن أروي الوقائع من زواياها المتعددة، لا لأصوغ صورة نهائية، بل لأظهر أن الذات ليست جوهرًا، بل شبكة من العلاقات والمعاني." [23]

وهكذا تتحول السيرة الغربية إلى فضاء للتجريب النظري، والتفكير في الذات كموضوع فلسفي أكثر منها كقيمة أخلاقية.

3. السيرة الذاتية بوصفها انعكاسًا للبنية الثقافية:

تعكس وظيفة السيرة الذاتية في كلا الأدبين التصوّر الثقافي لد "أنا" والـ "آخر"، وللحرية، والمسؤولية، والدور الاجتماعي. ففي العالم العربي، حيث تغلب القيم الجماعية والتقاليد، يُنظر إلى الذات من خلال مرآة الجماعة، وتُقيَّم بحسب مدى قربها أو بعدها عن المعايير الأخلاقية والدينية. ولهذا تظل كثير من السير العربية متحفّظة، ملتزمة، ذات نزعة إصلاحية.

أما في الثقافة الغربية، حيث تتعزز الفردانية وحرية التعبير، فإن السيرة تُكتب كمجال خاص للانعتاق والتجريب. لذا نجد أن كثيرًا من السير الغربية تحتوي على عناصر محرّمة أو صادمة في السياق العربي، مثل مناقشة الميول الجنسية، أو نقد الدين، أو الاعتراف بأخطاء أخلاقية كبيرة.

وقد لخص الناقد فيليب لوجون (Philippe Lejeune) هذه الفكرة بقوله:

"السيرة الذاتية في الغرب لا تبحث عن قدوة، بل عن إنسان حقيقي، بجوانبه المظلمة كما بجوانبه المضيئة، والصدق فيها لا يُقاس بالمثال، بل بالجرأة على الاعتراف" . [24]

بناءً على ما سبق، يمكن القول إن السيرة الذاتية في الأدب العربي تُوظَّف لبناء الذات داخل الإطار الثقافي والديني والاجتماعي، بينما تُستخدم في الأدب الغربي لتفكيك تلك الأطر ذاتها. هي في الأولى مشروعٌ للإصلاح، وفي الثانية مشروعٌ للتساؤل. ومن هنا، تنبع أهمية هذا الفن، لا بوصفه مجرّد سرد للحياة، بل كأداة فكرية تعبّر عن رؤية الثقافة للإنسان، والحقيقة، والتاريخ.

خاتمة:

تُعدّ السيرة الذاتية من أبرز الأجناس الأدبية التي تجمع بين الكتابة الإبداعية والتحليل الذاتي، وبين السرد الشخصي والوظيفة الثقافية .ومن خلال هذه الدراسة المقارنة بين نماذج من السيرة الذاتية في الأدب العربي والغربي، تبيّن لنا أن هذا الفن لا يقتصر على تسجيل الوقائع، بل يعكس فلسفة كاملة في النظر إلى الذات والآخر والمجتمع.

في الأدب العربي، وُظّفت السيرة الذاتية غالبًا لخدمة أغراض تربوية وأخلاقية واجتماعية، حيث سعى كتّابها إلى تقديم ذواتهم كجزء من مشروع نهضوي، أو كأنموذج يُحتذى به، متأثرين بمنظومة القيم الإسلامية والعربية التي تُعلي من شأن الجماعة، والمسؤولية، والتواضع. أما في الأدب الغربي، فقد تميزت السيرة الذاتية بالبوح الحر، والانكشاف الداخلي، ومحاولة تحليل الذات وتفكيكها، بل والتمرد على السلطة الاجتماعية والدينية والأسرية، انطلاقًا من فلسفة تقوم على مركزية الفرد، وحرية التعبير، والتشكيك في اليقينيات.

كما أظهرت المقارنة بين أعمال مثل "الأيام" لطه حسين و"الاعترافات" لروسوأن كلا الكاتبين استخدما السيرة الذاتية لتفسير تحوّلهما الفكري والوجودي، لكن بأسلوبين مختلفين: طه حسين قدّم الذات المتزنة التي تسعى نحو المعرفة بوصفها مسؤولية، بينما كشف روسو عن الذات المتناقضة التي تبوح بخطاياها دون خجل، في سعي نحو الاعتراف الكامل بالحقيقة.

تُظهر هذه الاختلافات أن السيرة الذاتية ليست فقط مرآة للفرد، بل هي مرآة للثقافة ذاتها؛ إذ تتجلّى فيها مفاهيم مثل الحقيقة، والهوية، والحرية، والالتزام، والاعتراف، وهي مفاهيم تختلف جذريًا بين الشرق والغرب، وتؤثر على بنية النص، وأسلوبه، ووظيفته.

التوصيات:

1. تعزيز حضور السيرة الذاتية في مناهج الأدب والنقد المقارن، لما لها من قدرة على كشف الفروق العميقة بين الثقافات، وأنماط التفكير، وتجليات الذات في النص.
2. تشجيع كتابة السيرة الذاتية في السياق العربي المعاصر، بروح أكثر تحررًا من القيود التقليدية، مع مراعاة الخصوصية الثقافية، وذلك لتطوير أساليب التعبير عن الذات ومساءلتها.
3. التركيز على السيرة الذاتية النسوية بوصفها مجالًا مهمًا لمساءلة الثقافة الأبوية، وإبراز صوت المرأة في كلٍّ من الأدبين العربي والغربي.

4. الاهتمام بالسير الذاتية الهامشية، كأعمال المهاجرين، والسجناء، والعمال، لما تمثّله من رؤى بديلة ووجهات نظر مغايرة للسائد في المجتمع.
5. البحث في أثر الوسائط الرقمية على كتابة السيرة الذاتية الحديثة، خاصة مع ظهور المدونات الشخصية، ومنصات التواصل الاجتماعي، التي أصبحت فضاءً جديدًا لتشكيل الذات وعرضها.
6. إجراء دراسات مقارنة جديدة تجمع بين السيرة الذاتية والنقد الثقافي، لرصد تحوّلات الوعي الذاتي في ظل العولمة، والهجرة، والنزاعات الفكرية المعاصرة.

المصادر والمراجع:

1 الاعتبار، أسامة بن منقذ، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1960، ص. 103.
2 التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1951.
3 الأيام، طه حسين، الجزء الأول، القاهرة: دار المعارف، [دون تاريخ]، ص. 9.
4 حياتي، أحمد أمين، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1950، ص. 34.
5 حياتي، أحمد أمين، ص. 7.
6 الاعترافات، أوغسطينوس، ترجمة: الخوري يوحنا الحلو، بيروت: دار المشرق، 1995، ص. 111.
7 الاعترافات، جان جاك روسو، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1957، ص. 5.
8 A Moveable Feast ،Ernest Hemingway ،New York: Scribner, 1964, p. 17.
9 Moments of Being ،Virginia Woolf, Edited by Jeanne Schulkind, London: Hogarth Press, 1976, p. 84.
10 الأيام، طه حسين، ص. 22.
11 الاعترافات، جان جاك روسو، ترجمة: عادل زعيتر، ص. 11.
12 حياتي، أحمد أمين، ص. 3.
13 Moments of Being ،Virginia Woolf, Edited by Jeanne Schulkind, London: Hogarth Press, 1976, p. 64.
14 حياتي، أحمد أمين، ص. 385.
15 Memoirs of a Dutiful Daughter ،Simone de Beauvoir, Translated by James Kirkup, New York: Harper & Row, 1959, p. 281.
16 الأيام، طه حسين، ص. 112.
17 الأيام، طه حسين، ص. 15.
18 الاعترافات، جان جاك روسو، ترجمة: عادل زعيتر، ص. 61.

19 الأيام، طه حسين، ص. 28.

20 الاعترافات، جان جاك روسو، ترجمة: عادل زعيتر، ص. 49.

21 حياتي، أحمد أمين، ص. 391.

22 Memoirs of a Dutiful Daughter ،Simone de Beauvoir, Translated by James Kirkup, New York: Harper & Row, 1959, p. 281.

23 Technologies of the Self: Lectures at the Collège de France, 1982–1983 ، Michel Foucault ،translated by L. H. Martin and P. H. Hutton ،Amherst: University of Massachusetts Press12 .ص ،1988 ،.

24 Le Pacte autobiographique ،Philippe Lejeune, Paris: Éditions du Seuil, 1975, p. 23.